باسم فضه

حتى لا توبخني ابنتي

قصة قصيرة

BM A 2023

حتى لا توبخني ابنتي

قصة قصيرة

باسم أحمد فضه

BM A

※ باسم أحمد علي فضه.

※ حتى لا توبخني ابنتي.

※ قصة قصيرة.

※ نوفمبر ٢٠٢٣.

※ bmabasem83@gmail.com

الإهداء:

إلى كل أب وأم يبذلان ما بوسعهما من أجل أبنائهم.

حتى لا توبخني ابنتي

كانت ميادة تتناول برفقة صديقتيها منى وعلياء –أثناء فترة الاستراحة– ساندويتشات الفلافل والشاورما. بعد أن أكملن الأكل قالت منى وهي تمسح بالمنديل الكاتشب عن فمها: «طعم ساندويتشات الفلافل اليوم لذيذة على غير العادة».

عارضتها علياء بشيء من السخرية: «أنتِ ذوقكِ دوماً عكس؛ فاليوم لا مذاق لها؛ وكأن البائع لم يتكمن لانعدام مذاقها من بيعها فتصدق بها علينا».

لم تردّ منى؛ لأنها لم ترد الدخول في جدال مع علياء لإدراكها بأن الاستراحة ستنتهي ولن ينتهي جدالهما.

أخرجتْ ميادة منديل من جيبها؛ وبحركة النساء الأرستقراطيات أخذت تمسح بخفة وبطئ فمها الذي ليس عليه بالأساس شيء ليُمسَح؛ ولكن هذه إحدى تصرفات ميادة التي تريد بها إظهار رقيّها بشكل مبالغ فيه. تأكل ببطء شديد، حتى في الكلام تحاول دوماً انتقاء الألفاظ اللائقة جداً والنبرات الرقيقة بشكل يجعل من الواضح للشخص الذي يركز قليلاً مدى تصنّعها.

نهضتْ علياء لتنفض الغبار عن مؤخرتها؛ ولاحظت شيء لزج يلتصق بملابسها، أمسكته بسبابتها وإبهامها وإذا به يمتط؛ فزمجرتْ: «من الساقطة الكلبة التي وضعتْ العلكة على المصطبة بعد أن علكها فمها القذر».

عاتبتها ميادة بنبرة رقيقة: «لا يجب أن تقولي هذه الألفاظ السوقية».

ردّتْ علياء بصوتٍ يوحي بالغيظ الشديد وهي تنتف العلكة: «من تضع العلكة في مكان يجلس الناس عليه هي بنت سوقية تستحق كل الألفاظ الخارجة عن الأدب».

فكتْ منى عقدة شعرها لتعقده من جديد؛ فالعقدة السابقة لم تكن ثابتة كفاية، وأثناء ذلك قالتْ: «عندما تعودين للمنزل رشي العطر على العلكة وسيسهل عليكِ نزعها».

حوّلتْ منى نظرها نحو ميادة واستطردتْ متسائلة وهي تحاول هذه المرة عقد شعرها بشكل جيد حتى لا تضطر لإعادة فكه وعقده: «متى ستقومين بدعوتنا لزيارة منزلكم؟ أنا متلهفة لرؤية غرفتكِ بألوانها الزاهية وسريرها العريض».

«لن أتمكن من استقبالكم فلا تزال عمتي وأولادها عندنا، أريد عندما تزورانني أن نقضي يومنا بمفردنا؛ حتى نكون على راحتنا؛ فعيال عمتي مزعجون بدرجة لا تتصوريها، يذرعون كل مكان في المنزل جيئةً وذهاباً طوال اليوم».

بنبرة استغراب: «ألا تزال عمتكم عندكم؟».

«أجل، سيستغرق ترميم منزلها وقت أطول مما كنا نتوقع؛ لذا أخشى بأنني لن أتمكن من استضافتكما عمّا قريب».

والحقيقة أن ميادة ليس لديها عمّة بالأساس؛ ولكنها تتحجج بذلك حتى لا تسمح لصديقتيها بزيارة منزلها في أي وقت؛ لذا ستختلق كل الحجج والأعذار حتى تمنع ذلك من الحدوث.

وهي تجاهد في نزع العلكة من ملابسها سألتْ علياء: «والدكِ مدير لأي مصرف يا ميادة؟».

«مصرف البحر الأحمر».

منى مدهوشة: «واو! إنه من أشهر المصارف في البلد».

عقّبت علياء وهي تواصل محاولاتها بجهد نزع العلكة من ملابسها : «ابن خالي خريج تجارة؛ هل بإمكان والدكِ تعيينه عنده؟».

هزّت ميادة رأسها معتذرة: «مع الأسف أبي يرفض أن يوظف أي أحد بالواسطة».

لوت علياء بوزها: «يبدو بأننا لن نستفيد من مكانة عائلتكِ في أي شيء».

ثم أضافتْ بنبرة عدوانية: «أيتها الحقيرة الفاسقة».

فغر فاه منى مصعوقة لأن علياء تشتم ميادة بهذه الطريقة! فيما احمرّ وجه ميادة وصار كالطماطم من الصدمة! ساد الصمت المكان؛ فأثار ذلك الريبة في علياء؛ فتوقفت عن نتف العلكة ونظرت نحو منى وميادة ولمّا رأتهما تحدقان فيها ببلادة سألتْ: «لماذا ترمقانني هكذا؟».

ردّتْ منى بنبرة تعنيف: «أنتِ تعلمين جيداً بأن ميادة فتاة رقيقة لا تحتمل أن يرميها أحد بأبسط المسبات، فلماذا تصفينها بهذه الأوصاف السوقية لمجرد انها اعتذرت لكِ أن والدها لا يوظف بالو....».

قاطعتها علياء بعد أن أدركت الموقف: «أيتها المخبولتان! لقد قصدتُ بالفاسقة والحقيرة الفتاة التي وضعتْ العلكة على المصطبة؛ لأنني لم أتكمن للآن من نزعها».

تنفستْ منى الصعداء: «الحمد لله لقد اعتقدتُ بأنكِ فقدتِ صوابكِ».

في الجانب الآخر لا يزال وجه ميادة يظهر عليه آثار الصدمة رغم توضيح علياء للأمر؛ لذا جلستْ علياء بجوارها، واحتضنتها

من خصرها وهي تقول: «اللعنة عليكَ يا ابن خالي؛ فقد تسببتَ بصدمة لأميرتنا ميادة».

ردّتْ ميادة: «لا بأس، كل ما في الأمر هو سوء فهم».

نهضتْ علياء لتواصل محاولاتها في نزع العلكة، وأردفتْ تشتم من جديد: «ساقطة عاهرة».

التفتت نحو منى وميادة وأضافتْ: «أقصد الفتاة التي وضعتْ العلكة على المصطبة».

وانفجرت الصديقات الثلاث بالضحك.

بعد أن توقفن عن الضحك؛ توترتْ ميادة فجأة بعد أن لمحتْ رجل بملابس بسيطة غير مرتبة، وغير متناسقة. كان أيضاً شعره غير مسرّح، وشعر ذقنه غير مهذّب. يحوم ببصره حول المكان يبحث عنها.

نظرتْ ميادة للأسفل حتى لا يلاحظها ذلك الرجل. كانت تدعو بينها ونفسها أن لا يراها. كانت ساحة المدرسة تعج بالطالبات؛ لذا تمنت أن يساعدها ذلك بأن لا يراها؛ ويغادر المدرسة.

وبعد لحظات لاحظها الرجل فناداها وهو يلوّح بيده: «ميادة! ميادة!».

احمرّ وجهها، تمنت أن تنشق الأرض وتبلعها.

قالت علياء: «ميادة هناك رجل يناديكِ، هل تعرفينه؟».

ردّتْ ميادة وبداخلها غيظ شديد: «أجل، سوف أذهب لأرى ماذا يريد، وأعود لكما».

توجهتْ نحو الرجل كالحة الوجه، وفور وصولها له سألته بصوت أجش: «ما الذي جاء بكَ؟».

استاء الرجل بشدة من طريقة كلامها؛ فقال بنبرة حادة: «لم أزر مدرستكِ الجديدة هذه ولا مرة؛ لذا ارتأيتُ أن أزوركِ اليوم لأرى كيف تُبلين في دراستكِ».

كانتْ مرتبكة وكأنها تقابل عشيقها ولا تريد أن يراها معه أحد.

ردّتْ ببرطمة: «أنا أبلي جيداً؛ بإمكانكَ المغادرة الآن».

قطّب جبينه: «لماذا تتحدثين معي بهذه الطريقة الوقحة؟».

كانت خائفة من انكشاف حقيقتها أمام زميلاتها أكثر من حقيقة حرجها من منظر والدها الغير مهندم. في مدرستها السابقة لم تكن لتولي موقف كهذا اهتمام كبير، وتتوتر لهذه الدرجة، أما في هذا المكان وهذه اللحظة لم تكن أبداً مستعدة للاعتراف أمام صديقاتها بأن الواقف معها هو والدها؛ بعد كل ما تتبختر به أمامهن؛ لذا لم تجد نفسها إلا وهي تتجرأ أن تطلب منه بشكل مباشر الرحيل فوراً عن المدرسة، فضربت بقدمها الأرض استياءً، وأردفتْ: «لماذا أتيتَ للمدرسة بهذه الملابس الرثـ...».

قطعت كلامها لبرهة، ثم قالتْ: «هذه الملابس الغير متناسقة؟ هل تريد أن يسخرن مني صديقاتي؟ هيا غا...».

قاطع إكمال كلامها هذه المرة مرور إحدى زميلاتها في الصف التي سألتها دون أن تتوقف عن حركتها لتنتظر الإجابة: «هل هذا والدكِ يا ميادة؟».

بعد أن ابتعدتْ زميلتها، نظرتْ له بتحد قائلة: «هل تستمتع بأن تجعلنـ....».

كان والدها مصعوق من جرأتها بالتكلم معه بكل صفاقة! فقاطعها بإمساكه لها من كتفها الأيسر بشدة، وسألها وهو يصرّ على أسنانه من شدة الغيظ: «هل تشعرين بالخجل مني؟».

اغرورقت عينيها وهي تقول: «أبعد يدكَ؛ أوجعتني».

لحظتها شعر بالأسف لتصرفه الجسدي الرعن؛ فأبعد يده عنها، وأخذ نفساً عميقاً، وأردف بنبرة هادئة: «لماذا تغيّرت تصرفاتكِ معي هكذا؟».

مسحتْ دمعها من عينيها قبل أن يسقط على وجنتيها. من شدة خوفها من اكتشاف زميلاتها لكذبها وادعاءاتها صارحته رغم إدراكها بأن ما ستقوله كلام جارح لا يجوز أن تقوله لشخص غريب ناهيكَ أن تقوله لوالدها: «بصراحة أنا محرجة من طريقة لبسكَ ولا أريد أن تعلم صديقاتي بأنكَ والدي وأنتَ بهذا المنظر، كل ما أطلبه منكَ هو أن تلبس ملابس مرتبة».

أضافتْ بنبرة توحي بالحنق الشديد: «حتى أنكَ لم تصفف شعركَ».

لحظتها شعر والدها بالإهانة، بغصّة في قلبه وهو يسمع ابنته بكل وقاحة تخبره بأنها تشعر بالخجل منه. فار دمه، كان يريد أن يصفعها، ويشدها من شعرها ويطوف بها ساحة المدرسة وهو يسحبها على وجهها، ولكنه أمسك أعصابه، وكتم غيظه، واكتفى وهو يغادر وأسنانه تكاد تطحن بعضها من شدة الغيظ بقول: «لنا منزل نتكلم فيه عن وقاحتكِ هذه».

غادر المكان؛ فتنفستْ ميادة الصعداء، وأخذتْ شهيقاً وزفيراً لعدة مرات حتى تهدئ من توترها فلا يظهر عليها شيء وهي تعود لصديقتيها.

عادتْ للانضمام لمنى وعلياء، وعلى الفور سألتها علياء: «هل كان ذاك والدكِ؟».

وهي تحرك يدها بشدة بإشارة نفي: «بالتأكيد لا».

جلستْ على المصطبة بجوار منى، وأضافتْ: «هذا مجرد شخص يعمل عندنا».

عقّبتْ منى: «لقد أخبرتكِ بأنه ليس والدها؛ فملابسه لا تليق بشخص يعمل مديراً لمصرف».

توقفتْ علياء عن محاولاتها لنزع العلكة من ملابسها، وانضمت للجلوس مع صديقتيها على المصطبة، وأردفتْ: «لقد اعتقدتُ بأنه والدكِ لأنني رأيته يمسككِ من كتفكِ بطريقة توحي بأنه يعنّفكِ».

ارتبكتْ ميادة قليلاً ولكنها أخفتْ ذلك سريعاً بابتسامة مصطنعة، وردّتْ: «لقد أخطأ بصركِ، وهذا ربما لأن المسافة بعيدة؛ لم تسمح لكِ برؤية واضحة فخيّل إليكِ بأنه يمسكني بتلك الطريقة التي تقولين عليها، لقد كان يربت على كتفي وحسب، ويسألني إن كنتُ بحاجة لشيء».

أضافتْ بعد أن قهقهت قهقهة قصير محاولة بذلك إزالة أي شك داخل صديقتيها، وتأكيداً أكثر لما تدعيه: «يعنّفني؟ وكأن بمقدور شخص يعمل عندنا أن يعنّفني».

سألتها منى: «ماذا يعمل عندكم؟».

«يذهب لشراء الخضروات واللحوم، يحضر لنا مستلزمات الطبخ وغير ذلك من مستلزمات المنزل».

أدارتْ علياء رأسها بزاوية تسمح لها بأن يكون وجهها مقابل لوجه ميادة، وأردفتْ تتساءل: «هذا صحيح لم أسالكِ من قبل، من الذي يطبخ لكم بما أن والدتكِ متوفاة؟».

وهي تُبعد خصلة من شعرها كانت تغطي عينها: «لدينا مدبرة منزل تطبخ لنا، وتغسل ملابسنا».

تابعتْ بنبرة تبختر: «حتى عندما كانتْ والدتي على قيد الحياة دوماً ما كنا نملك مدبرة منزل تعمل لدينا».

استطردتْ منى سائلة: « لماذا جاء هذا الرجل للمدرسة؟».

«لقد طلب منه أبي أن يأتِ ويطمئن عليَّ؛ لأنني عندما استيقظتُ صباحاً كنتُ أشعر ببعض الدوار».

أردفتْ علياء: «أخبري يا ميادة والدكِ أن يشتري لهذا الرجل بعض الملابس المتناسقة؛ بحال طلب منه والدكِ مرة أخرى المجيء إلى هنا للاطمئنان عليكِ؛ فحتى لو كان يعمل عندكم فهو في الأخير محسوب عليكم؛ يعكس صورتكم».

شعرتْ ميادة بأن الهواء يطبق على نفسها وهن يتحدثن عن هذا الأمر، فمن يتحدثن بشأنه هو في الأخير والدها. أنقذها من المواصلة في هذا الحديث رنين جرس المدرسة معلناً عن انتهاء فترة الاستراحة؛ وعلى الطالبات العودة للفصول.

انتهى الدوام الدراسي. وصلت ميادة للمنزل المكون فقط من غرفة، مطبخ، وحمام، وليس كما تدعي أمام صديقاتها بأن منزلها عبارة عن طابقين، في كل طابق توجد ثلاث غرف؛ كل غرفة لها حمامها الخاص.

عند نزول المطر يتسرب الماء من معظم مناطق السقف؛ حتى أنه أحياناً عندما يكون المطر غزير جداً من الأفضل لها ولوالدها –حرفياً– أن يستعملا المظلات.

دخلتْ غرفتها، لا وجود للسرير العريض وفراشها الذي يبلغ سمكه أكثر من عشرون سنتيمتر. ليس هناك ألوان زاهية على جدرانها، بل أنها متشققة كباقي جدران المنزل. ملابسها في حقيبة معدنية ولا وجود لخزانة الملابس الكبيرة التي تتفاخر بها أمام زميلاتها، لا تملك أي شيء تتفاخر به أمامهنّ.

كانتْ حانقة ومغتاظة بسبب مجيء والدها للمدرسة، فقد كانت لحظتها في موقف محرج، بالإضافة أنها اضطرتْ لجرحه بكلامها

حتى يغادر خوفاً من اكتشاف حقيقتها؛ فارتمتْ على فراشها – بسماكة سبعة سنتيمتر– مغتاظة دون أن تغير ملابسها.

ينام والدها في المطبخ؛ فبعد وفاة والدتها صار يهتم أكثر بها حتى يعوضها قليلاً عن والدتها؛ فانتقل للنوم في المطبخ بعد أن كانت هي من تنام فيه.

التحقتْ هذا العام بالدراسة في مدرسة خاصة بمنحة مجانية من مالك المدرسة؛ كون مالك المدرسة يقرب لوالدتها وهو بنفس الوقت صديق والدها؛ فطلب من والدها أن يجعلها تلتحق بالمدرسة ولن يدفع أي رسوم.

باتت ميادة تتصرف بحدّة غير مسبوقة منذ انتقالها للمدرسة الخاصة بعكس ما كانت عليه في المدرسة الحكومية، وربما السبب أن في المدرسة الحكومية كانت برفقة فتيات من نفس طبقتها. أما في المدرسة الخاصة اختلفتْ البيئة تماماً؛ ففي هذه المدرسة أغلب الفتيات من عائلات ثرية؛ وميادة تحمل كبرياء مبالغ فيه فلم تقبل على نفسها أن تنظر لها زميلاتها باستصغار أو شفقة؛ فادعتْ بأنها كذلك من عائلة ثرية، وأن والدها مدير مصرف كبير.

إضافة إلا أنها اشترطتْ على والدها حتى تبق في هذه المدرسة أن يعطيها مصروف يناسب المدرسة التي التحقتْ بها؛ حتى لا تشعر بالإحراج عندما تلاحظ زميلاتها بأن مصروفها أقل من مصروفهن، أو ليرجعها للمدرسة الحكومية. ولأن والدها يعلم بان المدرسة الحكومية التي كانت فيها لا تهتم كثيراً بالدراسة والطالب انصاع لطلبها؛ فهو يريدها أن تهتم بالدراسة كثيراً؛ خصوصاً وأن والدتها وصّته بأن يعلّمها أحسن تعليم، حتى يصير بإمكانها الالتحاق بكلية مرموقة تضمن لها مستقبل جيد، وبكل الأحوال بإمكانه توفير المصروف الذي تطلبه؛ فمنزله ملك وليس

إيجار، ومصروف البيت ليس بالشيء الكبير لأنه يعيش وإياها بمفردهما، بالإضافة أن عمله في بيع الخضروات يسير بشكل جيد.

عاد جميل للمنزل، وتوجه لغرفة ابنته، كان يريد توبيخها بشدة على تصرفها معه، ولكنه ارتأى بأن يؤجل ذلك لبعد تناول طعام الغداء، فانصرف متوجهاً للمطبخ وهو يقول لها: «سوف أسخن الطعام، غيّري زي المدرسة وتعالي لتناول الطعام».

ردّتْ عليه بطريقة تريد بها إخباره بأنها ممتعضة: «لستُ جائعة؛ تناوله بمفردكَ».

لاحظ جميل أن في الآونة الأخيرة ازداد التوتر في علاقته مع ابنته، لم يعد أي منهما يطيق الكثير من تصرفات الآخر. الابنة تشعر بأنه يقيد حريتها في كل شيء، ويريد معرفة كل التفاصيل عنها حتى لو كانت خاصة، بالإضافة إلا أنها صارت تغتاظ من عدم اهتمامه بلبسه وهندامه؛ لأنها ترى بأن منظره جزء لا يتجزأ من نظرة الآخرين لها. بالمقابل هو يرى بأنها لم تعد ابنته المطيعة اللطيفة التي لا تثني له كلمة، بل أنها وصلتْ لدرجة الخجل منه.

ذهب لغرفتها، ووقف أمام الباب، وبصوت أجش: «منذ التحاقكِ بالمدرسة الخاصة وأخلاقكِ صارتْ خراء».

كانتْ ممددة فجلستْ وقالتْ بتحدي: «حسناً أعدني للمدرسة الحكومية، هذا أصلاً ما أُريده، أرجعني فوراً إليها».

وقد كانت صادقة فيما تقوله، فهي تريد العودة للمدرسة الحكومية؛ فقد تعبت من تمثيلية الفتاة الثرية التي تؤديها دائماً في المدرسة الخاصة، والعيش في قلق خوفاً من افتضاح كذبها.

قلّب شفتيه غيظاً، وقال: «حسناً، لقد انتصف العام الدراسي؛ لذا لا مجال لانتقالكِ هذا العام، ستعودين السنة القادمة للمدرسة الحكومية بما أن المدرسة الخاصة ستفسد أخلاقكِ».

تابع بنبرة غضب ممزوجة بلفحة عتاب: «هل تخجلين مني أمام الآخرين بعد أن ربيتكِ، ودرستكِ، ولم أجعلك يوماً تشعرين بالحاجة. لقد كنتُ مستعداً دوماً لحرمان نفسي من أي شيء حتى أوفر لكِ ما تريدين».

نهضتْ وقد عبس وجهها تماماً وقالت: «أنا لا أطلب منكَ أن تشتري ملابس ذات العلامة التجارية باهظة الثمن، كل ما أطلبه أن تلبس ملابس مرتبة، أريد أن أراكَ متأنق سواء كنتُ أرتاد مدرسة خاصة أو حكومية».

ردّ عليها بنبرة غليظة: «هل تخشين من سخرية صديقاتكِ منكِ بسبب عدم أناقتي؟ هذه تعتبر صداقة مزيفة؛ فمن يسخر من عائلتكِ لأي سبب كان لا يُعتبَر صديق لأنه بتصرفه هذا لا يكن لكِ الاحترام، والاحترام أهم شرط في أي علاقة أكانت صداقة أو غيرها، لذا وجب عليكِ أن تقطعي علاقتكِ بأي صديقة تلمح لكِ مجرد تلميح بالسخرية منّي».

بنبرة تحدٍ وجدال: «ولماذا يجب أن أعيش دوماً وأنا أقلق من أن أقطع علاقتي بصديقاتي لهذا السبب؟ ما الذي سيحدث إن ارتديتَ ملابس مرتبة متناسقة، ولا تبقي شعركَ أشعث دوماً؟ هل سيضركَ هذا؟».

ارتختْ تعابير وجهها لتتغير من عبوس وتحد لزعل واستياء، وتابعتْ وصوتها يهتز: «كل ما أريده أن أتباهى بأناقتكَ أمام الآخرين، أن لا يتكلم على هندامكَ بسخرية أحد سواء يعرفني أو لا يعرفني، فهل هذا مطلب صعب تحقيقه؟».

لم يؤثر فيه تعابير وجهها التي توحي بالحزن والتعب، لا يزال يشعر بالإهانة والسخط بعد كل ما قالته له سواء هنا أو في المدرسة؛ فقال بعصبية: «سأرتدي ما أُريد، ما أراه مريح لي،

وأنتِ تبرئي مني كما تشائين أمام الآخرين؛ لا أريد ابنة تخجل مني لأي سبب كان. اكرهيني، اشمئزي مني، لا فرق عندي».

تابع بنبرة أقل عصبية اختلطتْ بخيبة ظن: «خسارة فيكِ كل ما ضحيتُ به لأجلكِ. أعمل بكد في بيع الخضروات حتى لو كنتُ أشعر بالمرض لأوفر لكِ مصروفكِ، وألبي لكِ كل ما تطلبين. لم أتزوج بعد وفاة والدتكِ؛ لخشيتي أن تذيقكِ المرّ من أتزوجها، أو تلعب بعقلي وتجعلني أقسو عليكِ. وهأنتذا تُكافئيني بأن تتبرئي مني أمام زميلاتكِ».

بدى وكأن **ميادة** ترتجف من كلامه التي رأته قاس للغاية، خصوصاً ذكره لمسألة عدم زواجه بعد وفاة والدتها. ردّتْ عليه وقد صار ارتجاف جسدها واضح: «أنتَ تعلم جيداً بأنه مهما حصل سأظل أحبكَ، ولكن لماذا ترفض أن تتأ....».

قطع كلامها حشرجة خنقتها. أخذتْ نفساً عميقاً، اغرورقت بعده عينيها، وأردفتْ بصوت يوحي بالألم: «تزوج إن شئتَ اليوم قبل الغد، ذلك حقكَ، ولكن ليس من حقكَ أن تلومني إن لم تتزوج، إياكَ أن تمنن عليَّ بأنكَ لم تقم بذلك بسببي؛ لا تجعلني أعيش بهذا الذنب، وترى بأنه لا يحق لي بسببه أن أدافع عن نفسي أمامكَ طوال حياتي حتى لو كنتَ مخطئاً، بجانب ذلك أن تعيش وأن تحمل شعور بأن أحدهم أوقف حياته من أجلكَ هو شعور سيء للغاية، مؤلم».

تابعتْ وقد شرع دمعها يسقط بغزارة: «تزوج هيا، اذهب الآن وأحضر عروسكَ. لا تجعلني أعيش طول عمري وأنا أشعر بالذنب لأنكَ لم تتزوج وتعيش حياتكَ الطبيعية بسببي».

جلستْ القرفصاء، ومسحت بكم قميصها وجهها الذي صار مبتل تماماً بدمعها، واحتضنتْ ساقيها، ووضعتْ رأسها على ركبتيها، وشرعتْ تُجهِش بالبكاء

شعر بالاستياء من نفسه وهو يراها تبكي بسببه. لحظتها لم يكن بمقدوره مواساتها، لم يجد كلام يقوله لها؛ فلا تزال مشاعره مضطربة بين الشعور بالذنب تجاهها، والاستياء منها؛ لذا لم يكن منه إلا أن غادر غرفتها وذهب للمطبخ.

رفعتْ رأسها وصاحتْ حتى يسمعها: «لتعلم بأن الآباء مهما ضحوا لأجل أبنائهم لا يمنّون عليهم بذلك».

وأعادتْ رأسها على ركبتيها، وتابعتْ بكائها.

لم يردّ عليها. جلس مسنداً ظهره على أنبوبة الغاز يعاتب نفسه لأنه بالغ في قسوته عليها بما قاله؛ عندما منّ عليها بأنه لم يتزوج لأجلها. ولكنه في نفس الوقت يحمل مشاعر حزن مختلطة بالغضب لأنها آذته بكلامها بأنها تخجل منه؛ حتى لو كانت على حق لم يكن يتعين عليها –على الأقل احتراماً كونه والدها– أن تقول ذلك بشكل مباشر يجرحه.

بعد نصف ساعة قرر مغادرة المنزل؛ لاستنشاق بعض الهواء ليهدئ من التوتر الذي بداخله. فتح الباب ليخرج وقبل أن يغادر قال لها: «الطعام موضوع في المطبخ؛ عندما تجوعين سخنيه وتناوليه».

كان جميل مستاء قليلاً لأنه لم يبع الكثير من الخضروات اليوم على غير العادة؛ فحدّث نفسه: «*ربما هذا عقاب لي لأنني قسوتُ بالأمس كثيراً على ميادة*».

لحظتها سُمِع دوي انفجار عنيف! خرج أصحاب المحلات يحاولون –كالعادة– تخمين المكان الذي وقع فيه الانفجار. توجه الحلاق سمير نحو جميل وسأله: «هل سمعتَ صوت الانفجار؟».

«وهل تعتقد أنني أطرش حتى لا أسمعه، يبدو أنه وقع وسط المدينة».

عارضه الحلاق: «كلا، الانفجار أقرب من ذلك».

أضاف بنبرة الواثق من كلامه: «أعتقد بأنه قرب سوق السمك. ولابد بأنه انفجار عبوة ناسفة، عبوة محترمة؛ تم تجهيزها وتعبئتها بأفضل ما يكون».

جميل مبتسماً: «لقد صار معظم الشعب خبير بالانفجارات؛ فبإمكانهم الآن تحديد مكان الانفجار، وشدته، بالإضافة لنوعية المادة المتفجرة».

أضاف ساخراً وهو يمسح التراب عن الطماطم: «وهذا لأننا صرنا متعودين على ذلك، فأعمال الإرهابين صارتْ صحيفة تصدر بشكل متنظم».

لحظتها لاحظ جميل بأن الساعة تُشير للثانية مساءً؛ فتوقف عن مسح الطماطم وهو يقول: «يجب أن أعود للمنزل بسرعة لتجهيز طعام الغداء قبل عودة ابنتي من المدرسة».

«وهل ستلحق القيام بذلك؟ فلابد وأنها ستصل عمّا قريب في أي لحظة».

حك جميل أرنبة أنفه وهو يفكر، ثم أردف: «معكَ حق، حسناً لا بأس سنطلب اليوم الأكل من المطعم».

صارت الساعة الثالثة والنصف مساءً ولم تعد بعد ابنته للمنزل، فصرّ على أسنانه وهو يحدّث نفسه بصوت مسموع: «هكذا إذن! تتأخر في العودة من المدرسة؛ هذه أول مرة تقوم بذلك، لقد تمادتْ هذه المرّة كثيراً في تمرّدها! سوف أوبخها بشدة ولن تأخذني بها أي شفقة ورأفة؛ فهذا أمر لا يمكن التغاضي عنه».

بعد مرور أربعة أيام رضخ جميل لمطالب ابنته، وقرر تلبية رغبتها؛ فذهب لبيع خاتم والدته، الشيء الوحيد الثمين الذي يملكه، ثمنه غال على قلبه فهو آخر شيء من ريحة والدته؛ لذا كان يرفض بيعه مهما ضاق به الحال واشتدتْ عليه الظروف، ولكن من أجل ابنته قرر بيعه وشراء ملابس جديدة له.

دخل محل بيع وشراء الذهب الذي يقع في الحي الذي يسكن فيه ليبيع الخاتم. أعطى الخاتم للصائغ، وأخبره بأنه يريد بيعه. استغرب الصائغ حالما رأى الخاتم؛ فهو يدرك جيداً بأن جميل يعتز كثيراً بهذا الخاتم، ويعلم أنه في أسوأ الظروف التي مر بها كان يرهن الخاتم ويرفض رفضاً تاماً أن يبيعه.

سأله الصائغ للتأكد: «هل هذا خاتم والدتكَ يا جميل؟».

أجاب جميل: «أجل».

«هل أنتَ في ضائقة مادية شديدة حتى تبيعه؟ ألا تريد رهنه وحسب؟».

«كلا، لستُ في ضائقة، ولن أرهنه؛ لأنني أريد ثمنه كاملاً لشراء ملابس جديدة فخمة».

الصائغ: «ولماذا تريد شراء هذه الملابس؟».

جميل وهو يبتسم: «حتى لا توبخني ابنتي. سوف أحرص من الآن وصاعداً أن أكون متأنقاً دوماً من أجلها».

قبض ثمن الخاتم؛ وذهب واشترى ملابس باهظة الثمن. اشترى بذلة، وقميص، وحذاء فخم في المنظر والخامة. تبقى أن يشتري جوارب، ولن ينس بالطبع ربطة عنق تناسب القميص والبذلة.

بعد انتهائه من شراء الملابس ذهب لمحل حلاقة مشهور وسط المدينة. وضع الملابس التي اشتراها على كرسي الانتظار، وجلس

على كرسي الحلاقة، وقال للحلاق: «أريد قصة شعر لا مثيل لها؛ فلديّ اليوم مناسبة مهمة».

وضع الحلاق غطاء على صدر جميل، وربطه خلف عنقه وهو يسأله: «هل اليوم عرسكَ؟».

عدّل جميل من جلسته، وأجاب: «كلا، أنا ذاهب لزيارة ابنتي؛ وستوبخني إن لم أكن في كامل أناقتي».

تابع وهو يشير للكيس الذي بداخله الملابس التي اشتراها: «لقد اشتريتُ ملابس فخمة بمعنى الكلمة، بالله عليكَ اذهب وألقي نظرة عليهن وأخبرني برأيكَ».

توجه الحلاق نحو الكيس وفتحه، وقال وهو يُمسِك بالبذلة: «إنها بالفعل بذلة رائعة، فقماشها ممتاز للغاية».

جميل بفخر: «لقد انتقيتها بعناية فائقة، علامتها التجارية مشهورة عالمياً».

أعاد الحلاق ربط الكيس، وشرع بحلاقة رأس جميل. استطرد جميل: «في حيّنا يوجد حلاق، اسمه سمير، هو صديقي، وأيضاً جاري في مكان عملي. أحلق عنده دائماً، ولكن لمناسبة كهذه لم أجازف بتسليمه شعر رأسي؛ وأتيت إليكم كونكم مشهورين، مضمونين».

الحلاق مبتسماً: «أتمنى أن نكون عند حسن ظنكم».

أضاف الحلاق مادحاً، ورافعاً للمعنويات: «أنا واثق أنه بعد الحلاقة، وارتدائكَ للبذلة ستبدو كالممثلين والمشهورين الذي يظهرون على التلفاز، ربما لن تتعرف عليك ابنتكَ».

ابتسم جميل من الأذن للأذن.

خرج من عند الحلاق وتوجه للمنزل. وصل المنزل، اغتسل، وارتدى الثياب الجديدة، ثم خرج متوجهاً للقاء ابنته. في طريقه مرّ بالمكان الذي وقع فيه التفجير الإرهابي قبل عدة أيام، وقف متأملاً آثار الانفجار. انضم للوقوف بجواره رجل مسن.

قال الرجل المسن: «ما الذنب الذي ارتكبه الأبرياء حتى يقتلونهم؟».

ردّ جميل دون أن يلتفت للرجل: «إنهم إرهابيون، لا يبالون إن قتلوا الأطفال والمسنين إذا كان ذلك سيرهب عدوهم وحسب».

نظر الرجل لجميل وسأله: «هل كنتَ موجوداً هنا يوم التفجير؟».

هز جميل رأسه نافياً.

أردف الرجل: «لقد كنتُ موجوداً لحظة الانفجار».

تابع وهو ينظر نحو أحد المحلات ويشير إليه بيده: «لقد كنتُ في محل بيع مواد البناء ذاك عندما وقع الانفجار».

عاد بنظره نحو جميل، وعندما رأى بأن جميل لم يتلفت إليه بعد ويركز نظره نحو مكان الانفجار؛ أكمل كلامه وهو ينظر لمكان الانفجار بعينين غائرتين: «لقد كان المشهد مروع! صراخ الجرحى، أشلاء الموتى. لقد كان معظم الضحايا طلاب مدارس كانوا قد خرجوا يومها للتو من مدارسهم عائدين لمنازلهم».

شخص جميل بعينيه قائلاً: «لقد كانت ابنتي هنا يومها».

نظر للرجل وأضاف: «وأنا ذاهب الآن لزيارتها».

لف الرجل بصره نحو جميل، وبنبرة أسى وأسف: «إذن هي ضمن الجرحى، أنا متأسف لمصابكَ، أتمنى لها الشفاء العاجل. كم عمرها؟».

«ستة عشر عاماً».

واصل جميل مسيره لمقابلة ابنته، وقبل أن يصل إليها شعر بالعطش؛ فدخل البقالة لشراء قنينة ماء، وهناك وقعت عينه على الشوكولاتة التي تحبها ابنته؛ فاشترى قطعتين.

وصل جميل لابنته، وفور وصوله أخذ يدور بخفة بجسده وهو يسألها: «ما رأيكِ بأناقة والدكِ؟».

توقف عن الدوران، وأردف وهو يشير لرأسه: «وماذا عن قصة شعري؟ لقد ذهبتُ لأمهر حلاق في المدينة. هل تعلمين بأن سعر الحلاقة عنده أكثر بخمس مرات من سعر الحلاقة عند سمير».

تابع وهو يمسك معطف بذلته بكلتا يديه: «لقد اشتريتُ بذلة أكد لي البائع بأن علامتها التجارية مشهورة للغاية؛ لن تتمكني من تخمين سعرها مهما رأيتِ بأنك تبالغين في السعر. ملمسها غَضّ لدرجة تجعلكَ ترغبين بأن تُمسكيها بيدكَ كلما سنحت لكِ الفرصة».

أبعد يديه عن المعطف، وأمسك بيده اليمنى ربطة العنق وهو يقول: «وماذا عن ربطة العنق؟ إنها أنيقة ومتناسقة مع البذلة والقميص، أليس كذلك؟».

أضاف وهو يشير نحو الحذاء: «أما الحذاء فلن أطلب رأيكِ؛ لأن كل من رآه انبهر بشدة. إنه حذاء لا ينتعله إلا الرؤساء».

جلس بجوارها، وأردف بفخر: «أعتقد بأنني لم أترك لكِ مجالاً لتوبخيني بسبب عدم أناقتي، صار بإمكاني زيارة مدرستكِ يومياً، وستتباهين بي أمام زميلاتكِ. أراهن بأنهنّ لن يصدقنكِ عندما تخبريهنّ بأنني والدكِ، سيعتقدن على الأكثر بأنني أخوكِ الأكبر».

أضاف وهو يبتسم ابتسامة ماكرة: «أنا واثق أنهنّ ما إن يعلمن بأنني لستُ متزوج سيقطّعن ملابسكِ وهنّ يحاولن بشق الأنفس الوصول إليكِ لطلب يدي منكِ للزواج».

تذكر الساعة؛ فرفع الكم الأيسر للمعطف قليلاً: «وهذه الساعة رولكس؛ لا يمتلكها سوى الأمراء».

ابتسم مُردفاً: «لا تصدقي؛ إنها مجرد ساعة عادية، فلم يتبقَ الكثير من المال بعد شرائي الملابس لشراء ساعة غالية، ولكن منظرها رائع ، أليس كذلك؟ منظرها الجميل إضافة لتأثير البذلة ذات العلامة التجارية جعلت كل من يراها يعتقد بأنها حتماً رولكس».

أضاف وهو يغمز بعينه: «لذا لا بأس بأن تخبري صديقاتكِ بأنها رولكس».

جلس معها لأكثر من ساعتين يحكي لها عن كل الأمور التي حدثتْ معه مؤخراً، ثم أردف: «يبدو بأنني أزعجتكِ بثرثرتي المتواصلة. حسنٌ سوف أذهب وأتركِ ترتاحين قليلاً».

نهض ليغادر وقال وهو ينفض التراب عن ملابسه: «لا تقلقي؛ سوف أزوركِ كثيراً كي لا تشعري بالوحدة».

تحرك مغادراً المكان، وبعد أن قطع مسافة بضعة أقدام تذكر أنه اشترى لها الشوكولاتة التي تحبها؛ فعاد وهو يلوح لها بقطعتيّ الشوكولاتة مبتسماً: «لقد اشتريتُ لكِ الشوكولاتة التي تحبينها وكدتُ أنسى إعطائكِ إياها».

وضع قطعتيّ الشوكولاتة على القبر وغادر.. .

~~BM-A~~

BM A 2023

ازداد التوتر في علاقته مع ابنته، لم يعد أي منهما يطيق الكثير من تصرفات الآخر.

- لماذا ستبيع خاتم والدتكَ؟

- حتى لا توبخني ابنتي.

قصة قصيرة تحكي عن علاقة مراهقة بوالدها.

باسم فضه